مشاهدة وجه العروس

لفيلسوف الهند وشاعرها "تاجور"
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

كان كنتشندرا لا يزال فى عنفوان شبابه حينما فقد زوجه ، ولم تحدثه نفسه بالبحث عن عقيلة جديدة ، وانقطع لقنص الوحوش وصيد الطيور ، وكان عظيم القامة ممشوقها ، نشيطاً خفيف الحركة حاد البصر ماهراً فى الرماية

ارتدى يوماً ثياب الريف واصطحب هيراسنغ المصارع وشكتلال وخان صاحب الموسيقى وميان صاحب وكثيراً غيرهم

وفى شهر أجراها بانا ذهب كنتى إلى الصيد فى مستنقعات تيدبجى بصحبة نفر ممن يحسنون الرماية . ركب الصائدون وحاشيتهم وخدمهم الكثيرون المكلفون بملء أحواض الاستحمام سلسلة طويلة من القوارب . وقد قالت نساء القرية إنه لم تتمكن واحدة منهن من الاستحمام أو حمل الماء إلى دورهن طوال النهار لأن فرقعة البنادق عكرت صفو الأرض والأمواج ، كما أن الموسيقيين لم يستطيعوا النوم ليلة واحدة

وفى ذات صباح كان كنتى جالساً فى مركبه ينظف بندقيته المفضلة ، وعلى حين غفلة أصابته رعدة عند سماع صوت البط البرى الذى لم يسمعه قط ، فرفع عينيه ولمح فتاة قروية تقترب من الشاطئ ، وقد ضمت إلى صدرها بطتين صغيرتين ، وكان الغدير فى هذا الوقت جافاً تقريباً لأن الحشائش سدت مجراه ، ووضعت الفتاة بطتيها فى الماء وطفقت تنظر إليهما بنظر حائر ، ولم يكن اهتمامها بالصائدين أقل من اهتمامها ببطتيها وخوفها من أن تطيرا . كان لجمال هذه الفتاة القروية روعة غريبة كأنها نحتت فى معمل ويشفاكرما (وهو المثال الربانى فى المثيولوجيا الهندية) وكان الانسان لا يستطيع أن يقدر مقدار عمرها لأنها جمعت بين جسم المرأة ووجه الأطفال بشكل لم ير فى غيرها ، ويظهر أنها كانت تجهل أنها على عتبة الشباب

لبث كنتى لحظة دون حراك كالمسحور ، وما كان يتصور أن يجد مثل هذا الوجه فى مكان مثل هذا وقد زادها المنظر الطبيعى جمالا لن نبالغه فى القصور لأن الزهرة البديعة تفتننا وهى على شجيرتها أكثر مما لو كانت فى إناء من ذهب . وفى ذاك اليوم كان القصب مزهراً مخضل السنابل من ندى الخريف ، وكانت السنابل تتلألأ وهى مخضلة من قطر الندى تحت أشعة شمس الصباح وقد حف هذا المنظر وجه فتاتنا النضر الفتان حتى ظهر ساحراً لكنتى كأنه صورة أخاذة

وقد فات كاليدوس أن يغنى ملكة جبال سيڤا هابطة فى بعض الأحيان للجنج الشاب حاملة فوق صدرها بطتين صغيرتين

وحينما لمحت الفتاة كنتى ارتعدت رعبا وانقضت على بطتيها متهدة وغادرت الشاطىء ثم اختفت فى خميلة قصب هندى (بمبو)

وقد شاهد كنتى أحد رجاله يصوب بندقيته إلى البطتين فانقض عليه ونزع سلاحه ولطمه لطمة قوية . وقد انتهى المزاح على الشاطىء وعاد كنتى لينظف بندقيته

ولقد جره حب التطلع إلى خميلة القصب الهندي التي اختفت فيها الفتاة فر عليها وتعداها إلي أن قادته قدماه إلى فناء بيت ميسور الحال، ترى في اليمنة مخازن الغلال وفي اليسرة حظيرة نظيفة للبقر وفي طرفها خميلة من النبق. وكانت الفتاة التي يبحث عنها جالسة وسط هذه الخميلة والدمع ينحدر من مآقيها، وكانت تحاول أن تعتصر من طرف ثوبها البلل بعض قطرات في منقار بطة جريحة. وكان بجانبها سنور رمادي اللون متكيء برجليه الأماميتين على ركبتيها، وكان ينظر بنهم إلى الطير من وقت لآخر حينما يقترب القط منه فدفعه بلطمة على مخطمه كانذار منها.

وهذه الصورة الفتانة التي تظهر وسط النهار في جو هادىء من فناء مزرعة قد انطبعت في قلب كنتي. وكان اللعب المتبادل بين الضوء والظل يعكس صورا مرتعشة فوق ثوب الفتاة، وعلى كشب بقرة تجتر وتذود عنها الذباب بحركة بطيئة من رأسها أو من ذنبها بينما تهب ريح الشمال وتخلط صوتها الذي يشبه خرير الماء بحفيف أوراق القصب الهندي.

وكأن الفتاة التي حضرت في الفجر إلى شاطىء النهر ملكة الغابة وقد أظهرت الاهتمام بملكة البيت، وقد أحس كنتي بأنه أشبه بلص فوجيء وبداه مخضبتان بالدماء. وعلى حين غفلة سمع من البيت صوتا ينادي: صدحي (معناها بالعربية الرحيق الموجود في بعض الأزهار) فهبت الفتاة فجأة وأمسكت ببطتها ودخلت مهرولة. فأعجب كنتي بهذا الاسم الظريف

رجع كنتي إلى السفينة وأعطى بندقيته إلى رجاله ثم ذهب إلى باب الدار الأصلي فوجد برهميا في منتصف العمر بوجه وديع وذقن محلوقة جالسا فوق مقعد داخل البيت وهو يقرأ في كتاب صلوات. وقد لاحظ كنتي في ملامحه المحبوبة المفكرة الطيبة واللطف المشرقين على وجه الفتاة الغروية. ثم حياه كنتي وقال له: «أيسمح لي سيدي بقليل من الماء فاني شديد العطش؟» فقابله الرجل بكل لطف وترحاب وأجلسه على المقعد ثم عرج على المنزل وخرج وبيده صينية من النحاس وبها أصناف من الكعك وقدح كبير من البرنز وبه ماء.

وحينما أكل وشرب رجا منه البرهمي أن يعرفه بنفسه فعرفه باسمه واسم أبيه وعنوانه، ثم قال عند انصرافه: «إنني أكون مسرورا جدا إذا استطعت أن أؤدي خدمة لسيدي».

— إنني لا أسألك أية خدمة. أجاب نابان بارجي. «ولكن هما يشغلني الآن».

— وما هو؟

إن الأمر يتعلق بابنتي التي شبت (فتبسم كنتي حينما فكر في الوجه الصبياني الذي شاهده) ولم أجد لها إلى الآن بعلا كفوا؛ وإن حصلت على هذه الأمنية أكون قد أديت ديني أجمعه للعالم. إنني لا أعرف في هذه البلاد حزبا ملائما ولا أستطيع أن أترك وظيفتي لأذهب للبحث عن زوج مناسب.

— «إنك يا سيدي إن استطعت أن تزورني في سفينتي فاننا نستطيع أن نتكلم في شأن زواج ابنتك» ثم حياه كنتي ثانية وانصرف وقد كان بعض أتباعه الاستفسار عن هذه الأسرة فلم يجد إلا ثناء عاما على جمالها وفضائلها.

وفي الغد حينما حضر البرهمي لرد زيارة كنتي حياه أعظم تحية ثم طلب يد ابنته، فدهش البرهمي لهذه السعادة التي كان يحلم بها — لأن كنتي فضلا عن أنه من أسرة برهمية عريقة في النسب فانه يملك ثروة ضخمة — وظن الرجل أنه في حلم فأعاد القول كالآلة: «أتريد أن تتزوج ابنتي؟»

— إذا تنازلت بالقبول

— أتتكلم عن صدحي؟

— بكل تأكيد

— ألا ترغب قبل كل شيء أن تراها وتحادثها ؟

فتظاهر كنتي أنه لا يعرفها وقال بكل بساطة :

— سننتظر كشف الوجه في حفلة العرس ...

فأجابه الشيخ البرهمي بصوت متهدج من التأثر :

— إن ابنتي صدحي لهي في الحقيقة طيبة عارفة بشئون البيت ، وبما أنك قبلتها بكرم عظيم فهي لا تسبب لك يوماً ما ظل الأسف والتندم ! وهذه أماني أعرضها عليك وأنا أباركك

وقد حدد الزواج في (ماغ) وأظهر كنتي رغبته في هدم تأجيله . وقد استعاروا للحفلة بيت مازومدار المبني بالآجر ، وفي الوقت المناسب حضر الخاطب ممتطياً فيله في موكب عظيم من الموسيقيين والأتباع يحملون في أيديهم المشاعل ثم ابتدأت الحفلة

وحينما نزع العروسان القناع الأحمر القاني لاتمام شعائر كشف الوجه تفرس كنتي في وجه عروسه المستحيي الغاض الطرف ورأسها مكلل بتاج الزفاف وفوقه عجينة الصندل ولم يستطع أن يعرف القروية التي ما فتيء شكلها منطبعاً في ذهنه ، فتأثر وظن أن ضباباً كثيفاً حال دون تحقيق منظوره

وبعد انتهاء الحفلة اجتمعت النساء في غرفة العروس . . . ذهبت عجوز منهن قائلة لكنتي هيا اكشف قناع عروسك . ولما نزع قناعها وجدها غير التي كان يعهدها ، فتقهقر بسرعة وكاد يجن من الغضب والغيظ ، وظهر ضوء المصابيح أمام عينيه ضئيلاً وتصور أن الظلمات أغارت بظلها على وجه العروس ...

وثارت نفسه ضد حميه وظن أنه بدل العروس بأختها . ولكنه بعد التأمل والتفكير تذكر أنه لم ير أية واحدة منهما وأن الخطأ واقع عليه نفسه ، وفضل أن يخفي حماقته وأخذ مجلسه متظاهراً بالسكون والدعة . ولو استطاع أن يبلع السم لما تمكن من إبعاد طعمه . لم يتحمل فرح هذه الجموع ولهوهم ، وكان يتمنى أن يتمتع بهذا السرور هو وجميع العالم

لمح على حين غفلة أن زوجه اقشعرت وكظمت صرخة ، ثم شاهد أرنباً هارباً اصطدم برجل عروسه وظهرت وراءه الفتاة التي شاهدها في الشاطيء ، ثم أخذت أرنبها وطفقت تلاطفه بالمسح وهو فوق ذراعها وتتمتم له بتودد وعطف

صاح النساء قائلات : هاهي ذي البريئة . وأشرن إليها بترك الغرفة ، ولكنها لم يظهر عليها شيء وجلست بدون اهتمام أمام العروسين وظلت تطيل فيهما النظر بتطلع صبياني . ثم هبت خادم وأمسكت بذراعها لتبعدها عن هذه الغرفة فاعترض كنتي بشدة وصاح فيها : « دعيها وشأنها »

— « ما اسمك ؟ » فاهتزت الفتاة ذات اليمين وذات اليسار ولم تجب بكلمة . فأغرقت النساء في الضحك

عاد كنتي إلى سؤاله : « هل كبرت بطتاك ؟ »

فاستمرت الفتاة في عدم اهتمامها

ولما يئس كنتي من إجابتها سألها بكل لطف وعطف عن أخبار بطتها الجريحة فاشتدت القهقهة من الجميع وعدد ذلك نكتة مسلية

وانتهى الأمر بأن علم كنتي أن تلك الفتاة صماء بكماء ولا أنيس لها غير طيور القرية وحيواناتها . وكان من سبيل الاتفاق أن الفتاة ظهر عليها أن تلبي نداء من كانت تنادي صدحي .

تملك كنتي تأثر جديد وعرف أن الستار الذي أخفى عنه ضوء النهار قد انزاح فتنفس الصعداء كأنه تخلص من كابوس وفر من مصيبة .

ثم نظر ثانية إلى عروسه فعرف أخيراً حقيقة المشاهدة لوجه العروس ، وتسلطت الأشعة الصادرة من قلبه وأضواء المصابيح على وجه قرينته فتجلى جماله الوضاء وتحقق أن بركة نابان قد أثمرت وأتت بأعظم نتيجة .

محمد كامل صيحاج